

"أفعال الكلام" في التفكير التفسيري "التفسير البياني" نموذجاً"

طالبة الدكتوراه :سناء عبدالي

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر بسكرة(الجزائر)

ABSTRACT:

the acts of speaking which are found by soral and his student ostan is considered as one of the most important pragmatice perspectives because they exceed the theory of spelling and give the priority to the context ;moreover,according to these acts the speech is related to certain events. So this research looks for the way the acts of speaking changed to be a modern theory for the commentary work according the daughter of the Beach Girl as a traditional practice that sees the text from the parts linked to.

الملخص

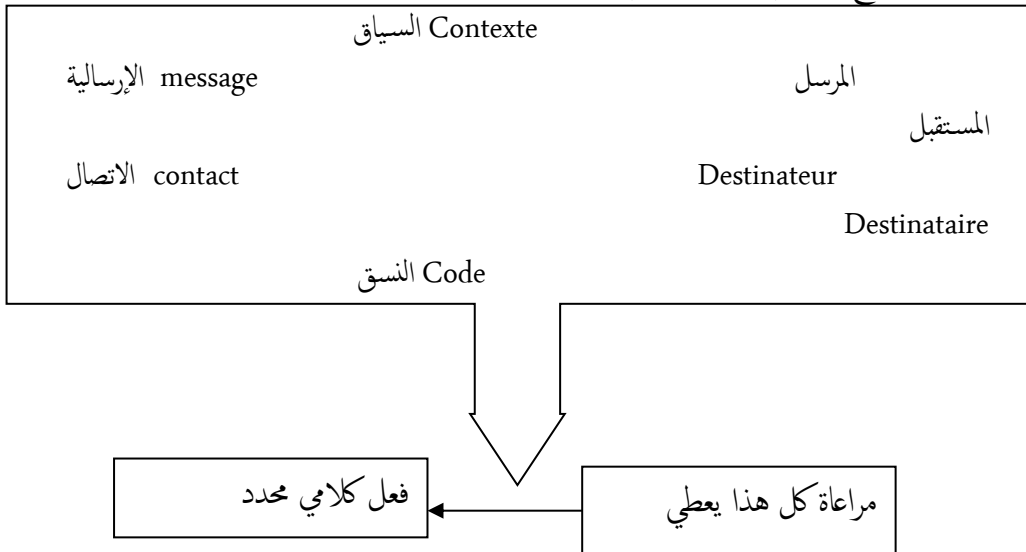
تعتبر الأفعال الكلامية التي جاء بها سورل وتلميذه أوستين من أهم محاور التداولية، فقد تجاوزت النظر القاصر للمنطوقات وأعطت الأولوية للسياق، وبذلك حولتها إلى إنجازات لأحداث معينة .
ويسعى هذا البحث إلى النظر في كيفية تجلي الأفعال الكلامية -ك نظرية حديثة- في العمل التفسيري عند "بنت الشاطئ"¹- كمراسة تراثية-، الذي ينظر للنص وفق عناصر الموقف التواصللي المرتبطة به.

إن التداولية تتمحور فيما قدمه أوستين في نظرية أفعال الكلام ثم طور لاحقا، فالفعل الكلامي لا يتحدد إلا من خلال سياق معين، فالجديد الذي قدمته نظرية الأفعال الكلامية هو النظرة إلى اللغة فهي ليست مجرد منطوقات بل إنها إنجازات لأحداث معينة.

فكما يقول سيرل (John Searle): "في الجزء الأدنى من وجهك ووجهي هناك تجويف يفتح بواسطة قطعة نسيج مفصلية بين الحين والآخر، يفتح هذا التجويف وتصدر عنه أنواع من الأصوات في أغلب الحالات تحدث هذه الأصوات نتيجة مرور الهواء فوق مجموعة من الأوتار المغشاة بالمخاط في الحنجرة، ومن جهة نظر فيزيائية محضة فإن النفثات السمعية التي تنتجها هذه الظواهر الفيزيائية والفيزيولوجية عديمة القيمة، مع ذلك فهي تمتاز بسمات مميزة. لأن النفثة السمعية التي تصدر من في يمكن أن تكون حكما أو سؤالا أو تفسيراً، أو أمراً أو تحذيراً أو وعداً وهكذا، أو عددا كبيرا جدا من الاحتمالات الأخرى"²

فالتداولية تؤمن بأن الظواهر الفيزيائية بتحقيق شروط معينة وبمراعاة لجميع الظروف تنتقل إلى دلالات، وبذلك فالشخص يؤدي فعلا كلاميا، بإصدار حكم، بسؤال، بأمر، بطلب طلب، بتفسير ظاهرة، أو الإخبار بنأ معين.

ومعرفة المتكلم للفعل الكلامي المنشود يستلزم منه دمجاً لجميع العناصر التي عالجاها سابقا من سياق خارجي وداخلي، وقصدية...، وسيكون الحاصل فعلا كلاميا، ويمكن توضيح ذلك في المخطط التالي³



يذكر أن فكرة الأفعال الكلامية في أصلها تعود إلى جذور فلسفية، فقد كان يعاب "على الفكر الفلسفي القديم عدم التفاته إلى اللغات الطبيعية، فسعت هي إلى التكفير عن هذا الذنب، بانخاذ اللغة موضوعاً للدراسة باعتبارها أولى الأولويات في أي مشروع فلسفي يتوخى فهم هذا الكون ومشكلاتها فهماً صحيحاً...، وتأثر بها: فيتغنشتاين، أوستين، سيرل، كارناب..."⁴.

ولم يكن الأمر يعيب الفلسفة فقط بل كان يعيب حتى الدراسات اللغوية، فقد صرح أندري مارتيني (Andrey Martini) أن: "الوصف التزامني للألسن يعتبر بمثابة تمرين قاصر كلياً، وغير جدير باهتمام العلماء في الواقع، على الرغم من تحذيرات همبولت (Humbolatt) فقد تصرفنا كما لو كان اللسان وضعا ماديا نتاجا وليس حدثاً"⁵.

إن أهم ما قيل في نظرية الأفعال الكلامية كنظرية لغوية يعود إلى جون أوستين (J. Austin) ثم ما طوره تلميذه سورل، فأوستين (Austin) يحدد في كتابه⁶ (نظرية الأفعال الكلامية) قصور الفلاسفة حينما افترضوا أن شأن الحكم في القضية: أما أن يصف شيئاً ما، أو يثبت واقعة عينية مما يعني أن الحكم سينحصر في الصدق والكذب، فقام بتعديل لفظ الوصف إلى لفظ خبرية (constative)، وبين أن النطق بالجملة هو إنجاز لفعل أو إنشاء لجزء منه.

ومن أمثلة ذلك:

- نعم "أقبل أن تكون هذه المرأة زوجتي": كمتلفظ بهذه الكلمة "نعم" أثناء مراسم حفل الزفاف، فإن الوضع سيتغير من شخصين عاديين إلى زوجين.
- "أترك هذه الساعة ميراثاً لابني"، كما يحصل عند قراءة الوصية، فهذه الكلمات غيرت العالم، لأنها إيقاعات.

إذا توقفتنا عند عنوان كتاب أوستين (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، سنفهم أن الكلام يتغير وفق النظرية التداولية من مجرد ألقاظ إلى إنجازات.

وإذا عكسنا النظر إلى القرآن الكريم، سنجد أن الله غير العالم بأسره بكلمات وما زال وسيظل يغير، وبالتالي فإن عمل بنت الشاطي، أو عمل أي مفسر أو

أصولي كان محاولة الإجابة عن سؤال (كيف ينجز الله الأشياء بالكلمات؟). "فبينة اللغة لا تختلف عن بنية الفكر، ووظيفتها تتجاوز كونها وسيلة تواصل إلى وسيلة تأثير في العالم والسلوك"⁷.

ووفق ما ذكرناه فإن أفعال الكلام عند أوستين تنقسم إلى قسمين:

← عبارات وصفية إخبارية.
← عبارات إنجازه إنشائية

"ومعلوم أن الفكر اللغوي القديم يتضمن ثنائية (الخبر/الإنشاء) التي تشبه إلى حد بعيد الثنائية الأوستينية (الوصف/الإنجاز) كما يدل على ذلك تعريف القدماء للخبر والإنشاء"⁸.

فرفض أوستين لتطبيق حكم الصدق والكذب قابله أيضا رفض العرب، وهذا يعكس نظرة تداولية عربية تنظر إلى الكلام وفق أحواله المختلفة بحسب المتكلم والسامع والمقام والسياقات.

فكان من الأساليب الخبرية ما يخرج إلى أغراض مجازية فنعطي قوى مخالفة للخبر كالأمر والنهي والنداء.

ومن الأساليب الإنشائية كذلك ما يخرج إلى أغراض مجازية فقد نظر العرب إلى الأساليب البلاغية نسبة إلى درجة مطابقتها للخارج أو مخالفتها. وبذلك تعتبر "نظرية الخبر والإنشاء) عند العرب من الجانب المعرفي العام مكافئة لـ: مفهوم (الأفعال الكلامية) عن المعاصرين"⁹.

إذا عدنا إلى موضوع علم المعاني عند السكاكي (ت 626 هـ) سنجد أنه يجعله: "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان،، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام ما يقتضي الحال ذكره"¹⁰.

وفي محاولة لاستحضار تقسيم العرب لأساليب البلاغية -وفق هذا المخطط- سنجد أن العرب لم يركزوا على البنية في تحديد نوع الأسلوب

فلو اتخذ العلماء العرب "تركيب الجملة" معياراً تميزاً بين الخبر والإنشاء، لما وجدنا نظراً آخر في الأساليب الخبرية يجعلها تنتقل عن وظيفة الإخبار (حقيقي وغير حقيقي) وكذلك في الأساليب الإنشائية الطلبية.

"سواء في المرحلة الأولى أم فيما بعدها...

ومثال ذلك:

"طلقت زوجتي" فقد تكون:

خبرية (في حال الإخبار عن وقوع الطلاق ومن ثم تقبل الصدق

والكذب).

إنشائية (حال إيقاع فعل الطلاق الحقيقي عند النطق بألفاظها ومن ثم لا

تقبل الصدق أو الكذب).

... أما القول بتأدية الصيغة التركيبية الواحدة لمعنيين أسلوبيين متباينين تارة خبر

وتارة إنشاء، فقد فسره أغلب العلماء العرب بالنقل، لا بالاستعمال المجازي، مما يعني أن البنية أصلاً وضعت للدلالة على الخبر، لكن جرى استعمالها في الدلالة على الإنشاء من باب النقل¹¹.

وحقيقة إذا عدنا إلى كتاب التفسير البياني لبنت الشاطئ فسنجد الأمر

نفسه، فرغم كونها تركز على الدراسة البلاغية إلا أنها لا تعتمد في تحديد مدلول الأساليب على التقسيم إلى خبر أو إنشاء وفق صدق أو كذب، ولا تجعل من تركيب الجملة معياراً لذلك، فبتقصي التفسير البياني جزئيه لا نجد وقعا لتسميات الخبر والإنشاء وإنما تعمل على تحديد الفعل الإنجازي لهذه المفوضات، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ((عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ)) (البلد 18). لا تعالجه المفسرة¹² معالجة سطحية لتقول أنها جملة خبرية (صادقة أو كاذبة) -مع الإشارة إلى أن كلام الله لا يقبل تطبيق هذا الحكم- غرضها الإخبار وإنما تتبع هذه الآية في سياقها اللغوي وتضعها في سياقها الخارجي لتتوه أخيراً إلى أن القرآن هنا أراد أن يزيدنا شعوراً بنظرته إلى الجشع والشؤم والأنانية وبالتالي يحذرنا من سوء هذا المصير وهذا ما يدخل في باب الإزاميات التي وضعها سيرل.

وفي قوله: ((وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا)) الزلزلة 3. تضع الآية في سياقها (أحوال يوم القيام) فتقرر أن السؤال واضح فيه معنى العجب والدهشة والخوف والقلق¹³ وهذا أيضا يدخل في الإلزاميات (خوف/ رهبة).

فعمل بنت الشاطي كعمل علماء الأصول، لم يول: "عناية بالدراسات الصورية والوظيفية للمعنى ولا بالتفريق المرسوم في اللسانيات بين التفسيرات الدلالية والتخاطبية، وربما كان هذا نتيجة لكون حافزهم في الدرس إنما هو صوغ أصول منهجية لفهم القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا يعني أن علماء الأصول لم تقف محاولتهم بمقتضى إمتثالهم لأوامر دينهم عند الاجتهاد في فهم النصوص الدينية، بل تعداه إلى أن يستنبطوا منها الأحكام التي تهم حياة المسلمين والدارين الدنيا والآخرة، أما علماء اللغة الغربيون فقد بدأوا بحوثهم في فلسفة اللغة بالتركيز أساسا على بنى اللغات"¹⁴ أي اللغة من حيث كونها نظاما وليس من جهة كونها سلوكا.

فبنت الشاطي أدركت أن الاعتماد على الأنظمة اللغوية لا غير لن يمكنها من بلوغ تفسير سليم بل يجب أن تدمج المقامات التخاطبية الفعلية، لذا نظرت إلى اللغة على أنها تشكل وظائف تواصلية إبلاغية أو أفعالا إنجازية على حد تعبير التداوليين.

كما أن تقسيم العلماء العرب للخبر إلى أقسام كان في غالب الأحيان يعتمد رؤية تداولية، فإبراهيم النظام (ت 231هـ) فرق¹⁵ بين صدق الخبر وكذبه، فإن صدق الخبر مطابقته لاعتقاد المخبر، سواء طابق الواقع أم لم يطابقه، وكذب الخبر: عدم مطابقته لاعتقاد المخبر سواء لم يطابقه الواقع أم طابقه. لا سيما وقد تمسك بظاهر الآية الكريمة: ((إِذَا جَاءَكَ الْمُتَأَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَأَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ)) المنافقين (1). فإن الله سجل كذبهم في شهادة أنك الرسول، مع أنه مطابق للواقع. خصوصية الفعل الكلامي تتحدد من المقامات التخاطبية الفعلية، حال المتلقي، حال المتكلم... ويورد أوستين أنواع للفعل الكلامي¹⁶ الكامل: Acte de discours

intégral

(1) فعل القول (فعل لغوي): Acte locutoire

إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم، ذات دلالة

، فيشمل:

جانب صوتي /صرفي / تركيبى / دلالي.

(2) فعل متضمن في القول: Acte illocutoire

هو الفعل الإنجازي الحقيقي (إنه عمل ينجز بفعل ما) وهو المقصود من النظرية بأكملها (وعد- سؤال- أمر- تحذير).

(3) فعل ناتج عن القول: Acte perlocutoire

قد يتسبب المتكلم في نشوء آثار في المشاعر والتفكير (إقناع- تضليل- إرشاد...).

ويحمل كل فعل من هذه الأفعال قوة إنجازية واستنادا على هذه القوة ميز أوستين بين 5 أنواع من الأفعال الكلامية وكذلك سيرل مع اختلاف بينهما، وسنجعل كلامنا موافقا لتقسيم سيرل:¹⁷

1/ الإثباتية: ونقطة الفعل الكلامي الإثباتي هو التعهد للمستمع بحقيقة الخبر، فهي أن نقدم الخبر بوصفه تمثيلا لحالة موجودة في العالم، وأبسط اختبار لتحديد هوية الإثبات هو أن نسأل ما إذا كان المنطوق صادقا أو زائفا بالمعنى الحرفي، ولأن للإثباتيات اتجاه ملاءمة من الكلمة إلى العالم فهي يمكن أن تكون صادقة أو زائفة.

2/ التوجيهية: وهي محاولة جعل المستمع يتصرف بطريقة تجعل من تصرفه متلائما مع المحتوى الخبري للتوجيه (الأوامر، النواهي، الطلبات...) واتجاه الملاءمة هو دائما من العالم إلى الكلمة، وشرط الصدق النفسي المعبر عنه هو دائما الرغبة.

3/ الإلزامية: كل إلزامي هو تعهد من المتكلم لمباشرة مساق الفعل الممثل في المحتوى الخبري (ندور، رهون، عقود، ضمانات...) واتجاه الملاءمة في الإلزاميات هو دائما من العالم إلى الكلمة وشرط الصدق المعبر عنه هو دائما القصد.

4/ التعبيرية: هي التعبير عن شرط الصدق للفعل الكلامي (اعتذارات، تشكرات، تهاني، ترحيبات، تعزيات) والمحتوى الخبري ليس له اتجاه ملاءمة.

5/ التصريحات: هي أحداث تغيير في العالم بتمثيله، وكأنه قد تغير: (أنت مطرود، أعلنكما زوجا وزوجة....)

كما أن محمود نخلة، اقترح أيضا تقسيما للأساليب العربية¹⁸ على غرار ما يعرضه (أوستين وسيرل) كالتالي:

تصنيف أوستين	تصنيف محمود نخلة
déclarations إعلانات	إيقاعات
directives توجيهات	طلبات
assertives إخباريات	إخباريات
commissives إزاميات	إزاميات
expressive تعبيريات	تعبيريات

قد نجد بعض التغيير في تقسيم "محمود نخلة" وذلك مراعاة لخصوصية اللغة لكنه يبقى تقسيما موقفا فقد راعى روح اللغة العربية ولذلك سنعتمد على هذا التقسيم ونطبقه على كتاب التفسير البياني للكشف أكثر عن وقع الأفعال الكلامية في هذه المدونة، فبالرغم من أن هذه النظرية -أ. كلامية- نظرية حديثة إلا أن هذا لا يمنع وجود أثر لها في التراث العربي، فقد اهتم علماءنا القدامى بالجانب الوظيفي التداولي في دراستهم اللغوية وكذلك هي بنت الشاطئ حاولت في تفسيرها الربط بين السياق والقصد، لتبين أن اللغة ليست أداة وصف فقط بل هي إنجاز الأفعال.

1) الإيقاعات (الإعلانات):

وهي التي يكون إيقاع الفعل فيها مقارنا للفظه في الوجود، فأنت توقع بالكلام فعلا، وينبغي أن تتسع لتشمل أفعال البيع والشراء، والهبه والوصية والوقف والإجازة، الزواج، الطلاق، الوكالة....، وهذه كلها يقع الفعل فيها بمجرد النطق بها، ولصحة هذه الأفعال وضع الفقهاء شروطا لها وهي تختلف عن الشروط التي وضعها أوستين وسيرل وأهمها:

* أن يكون الكلام واضح الدلالة على المراد بحيث يفهم منه إيقاع الفعل فيها لا لبس فيه.

* أن يكون متبعاً لأعراف أهل اللغة، فالزواج -مثلاً- لا يعقد بالفاظ الوصية...

* أن يعلم كل من المتكلم والمخاطب ما صدر عن الآخر ويوافق عليه.

* أن يكون إيقاع الفعل كاملاً.

* أن يكون زمن الفعل حاضراً أو مستقبلاً لفظاً ومعنى أو معنى فقط فإذا كان ماضياً لفظاً ومعنى كان إخباراً.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الشروط ليست مقصورة على الإيقاعات، بل هي شروط نجاح أي فعل، ويضاف إليه شرط الإخلاص في أداء الفعل، فكما يقال: (الأمر بمقاصدها)¹⁹ وبالعودة إلى تفسير بنت الشاطئ، نجد أن أغلب سورها المختارة للتفسير كانت تبتدئ بقسم: (سورة ضحى، العاديات، النازعات، البلد، القلم، العصر، الليل، الفجر) وكان المقسم هنا هو الله تعالى، ومادام الله يقسم فهو بيان لوجه العظمة في الشيء المقسم به (كالليل، أو العصر، أو الفجر)، كما أنه أسلوب بلاغي يسعى إلى قوة اللفت إلى الصورة الواردة بعده، التي تكون في الأغلب فعلاً إيقاعياً، فالخالق يقسم لإيقاع فعل ما، فعل عظم أمره، حتى جعله تعالى يسبقه بقوة اللفت هذه (قسم الإله) لذلك أشرنا أن نخصص لهذا الجزء من أفعال الكلام عنواناً فرعياً (الإيقاعات بعد القسم) ثم سنتكلم عن الإيقاعات بشكل عام في التفسير.

* الإيقاعات بعد القسم: وجاء ذلك في:

1/ قال تعالى: ((وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ)) الضحى (5-1)، فالله وضح بكلامه عدم ترك رسوله بعد كل ما قيل، وأن ما هو آت أكبر، وتربط الباحثة هذا الإيقاع بالقسم الوارد قبله فتقول أن "اختيار المقسم به تراعى فيه الصفة التي تناسب الموقف"²⁰

فهي²¹ ترى أن المقسم به في آيتي الضحى، صورة مادية وواقع حسي، يشهد به الناس في كل يوم تألق الضوء في ضحوة النهار ثم فتور الليل دون اختلال في النظام، ثم تربط هذا بالفعل الإيقاعي الوارد فتقول أنه لا عجب في أن يجيء بعد أنس الوحي وتجلي نوره على المصطفى صلى الله عليه وسلم، فترة سكون يقصر فيها الوحي، فاتاه الله ما كان في شوق إليه، وثبته بالوحي وبشره أن تلك الفترة لم تكن عن ترك ولا عن قلى وأقسم له على ذلك.

ونلاحظ هنا أن هذا الفعل الإيقاعي كان بمثابة تبرئة لتهمة أو قذف لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء هذا القول فصلا لكل شبهة، فاطمأن رسوله بهذا الفعل من جهة، ودحض هؤلاء الكفار والثرثارين من جهة أخرى.

وتلقت الباحثة إلى الصلة بين هذه الآيات مستكملة بذلك عملها التداولي وذلك لما نزل قوله تعالى: ((مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)) الضحى (3)، حصل تشريف عظيم لرسول الله فكأنه استعظم الأمر، ف قيل له إن مالك عند الله في الآخرة خير وأعظم.

2/ قال تعالى: ((وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى إِنََّّ

سَعْيِكُمْ لَشَتَّى))

الليل (1-4)، يبتدئ تعالى هذه السورة بقسم، مستعملا آيتين عظيمتين من آياته -جل جلاله- متتابعتين منتظمتين خادمتين لبعضهما البعض، يظهر ذلك من قوله (يغشى / تجلى) (الليل / النهار) فقد جاء هذا على شكل مقابلة (محسن بدعي معنوي) زادت في توضيح المعنى وبلاغته.

فالمفسرة تنتمي²² إلى أن المعنى الأقرب ليغشى: الغطاء والغاشية، الغطاء الذي يغلف القلب، فكان الليل هنا كان غطاء للكون فحجب عنه الضوء وفي مقابل ذلك يأتي التجلي الذي يعني الظهور والانكشاف وجلا الأمر اتضح وتبين، ثم يكمل القسم بآيات اختلاف جنس الإنسان من ذكر وأنثى والأقسام بعظم شأن الآيتين تبعه تقرير في قوله ((إِنَّ سَعْيِكُمْ لَشَتَّى))، فالسعي هنا هو العمل الكسبي مع القصد والدأب، أما 'شتى' فتبين التفاوت.

فاختلاف طرفنا وتباينها، ربط ربطاً راتعاً مع ما سبقه من قسم، ولهذا التفتت إليه بنت الشاطي حين قالت: "هذا هو تفاوت السعي، يأتي بعد أن مهد له اللفت إلى التفاوت المدرك بالحس، بين غشية الليل وتجلي النهار، بين خلقة الذكر والأنثى"²³. وفي هذا حس جمالي، يفيض حسنه من دمج الماديات والمعنويات وربما لا نفهم هذا الإيقاع والإعلان الإلهي في قوله تعالى: ((إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى))، إلا باستكمال المتبقي من سورة الليل الذي جاء في صورة شرطية توضيحية للإعلان الأكبر والتقرير السابق (سعيكم مختلف) وذلك في قوله تعالى: ((فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)) الليل (5-10).

إذن فاختلاف السعي مقصود به اختلاف الجزاء في الآخرة فإذا كان السعي إعطاءً أو تقوى وتصديقاً بالحسنى فإن الجزاء يسر. وإذا كان الجزاء بخلاً واستغناء وتكديباً فإن الجزاء عسر، فالتقابل يستمر في هذه الآيات كذلك.

أما عن الأفعال الإيقاعية الأخرى فقد اختلف وجودها في أي القرآن الكريم. ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى من سورة الشرح: ((إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)) الشرح (5) فقد ذكرت المفسرة مباشرة أن هذا من الأفعال التقريرية، وإعلان منه تعالى تجاه نبيه وكل شخص يعاني شدة فإنها ستفرج، وإن لم تذكر بنت الشاطي هذا الأمر بلفظه -وكيف لها بهذا فالتداولية كعلم واصطلاحات مضبوطة لم تكنشف إلا مؤخرًا- فإنها تعطي تعليقاً على الآية لا يترك لنا مجالاً للشك في هذا الفعل التقريري، وجاء هذا في قولها عن هاتين الآيتين: "هي تقرر ما يترتب على ما سبق بيانه من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر وهذا التقرير يأتي مؤكداً إن ثم يقوى التأكيد فيه بتكرار الجملة مرتين نفيًا للشك وتقوية للإيناس"²⁴.

فهذا إعلان منه تعالى جاء ليرسخ في نفس المصطفى للطمأنينة إلى رعاية ربه عز وجل ويؤنسه صلى الله عليه وسلم إلى ما يستقبل من أمره، وقد جاء هذا التقرير بعد مجموعة من الاستفهامات الإنكارية ذات غرض تقريري.

"ألم نشرح لك صدرك؟ ألم نضع عنك وزرك؟ ألم نرفع لك ذكرك؟ فكأن الله يقول لا تخف فبعد كل هذا أؤكد وأعلن لك أن مع العسر يسرا وهذا إعلان كما تقول بنت الشاطئ يحمل "معاني الارتياح والسهولة والفرح على الإطلاق"²⁵.

2) الطلبيات:

ذكر مصطلح الطلب في البلاغة العربية يشد أذهاننا نحو الأساليب الإنشائية الطلبية من (أمر ونهي، استفهام، نداء، تمني) فالإنشاء عند العرب راجع إلى معنى الطلب وهو عند السكاكي: "ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب"²⁶، وتتوافق الرؤية التداولية الحديثة مع الرؤية التراثية العربية، فمحمود نخلة يعرف الطلبيات على أنها:²⁷ كل الأفعال الكلامية الدالة على الطلب بغض النظر عن صيغتها، وهو الأمر الذي أخذ به الأصوليون والفقهاء فكان فيها صيغ الأمر المختلفة مثل (أمرتك، أوجبت عليك، فرضت حتمت) والنهي (المضارع المسبوق بلا، لفظ النهي، التحريم...)، الاستفهام مثل (حرفي الاستفهام "هزمة + هل"، أسماء الاستفهام...) وجعل الغرض الإنجازي من الطلبيات هو التأثير في المتكلم ليفعل شيئاً أو يخبر عن شيء.

ولا يخفي علينا أن القرآن الكريم يتسع لجانب كبير من هذه الطلبيات كيف لا وهو الرسالة الساوية التي غيرت مجرى العالم ككل، انصياعاً لأوامر ونواهي الخالق جل جلاله، فكيف كان تعامل بنت الشاطئ مع هذا النوع من الأفعال؟ باستقراء الأساليب الإنشائية الطلبية (أغراض حقيقية = مباشرة) في السور المختارة للتفسير البياني نجد أن أغلب الطلبيات الموجودة كانت في باب: الأمر، الاستفهام، النهي.

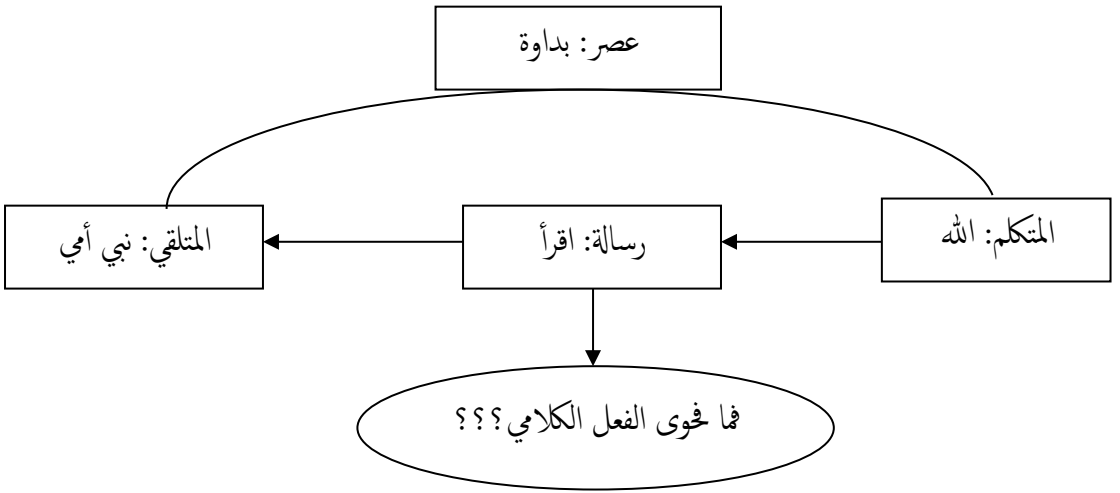
أ/ الأمر:

* في سورة العلق، نجد أن بنت الشاطئ تقف طويلاً عند الفعل الكلامي "اقرأ"²⁸ من قوله تعالى: ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)) العلق (1-5).

فتتعجب!!! وليس العجب هنا من بداية الآية بالفعل الكلامي الطلبي الأمري "اقرأ" ولكن العجب أن تكون كلمة "اقرأ" أول ما استهل به الوحي إلى النبي الأُمِّي،

المبعوث في الأميين رسولا منهم، وأن يكون الكتاب معجزة للمصطفى خاتم الأنبياء بعد أربعة عشرة قرناً من الزمان، والعصر عصر بداوة والبيئة وثنية جافية لا عهد لها بمظاهر الحضارة المادية والفكرية التي ازدهرت في بيئات أخرى، كوادى النيل، ووادى الرافدين...

فالمفسرة هنا تحاول فهم دلالة الأمر "اقرأ" بعدم بترها من سياقها، فتضع في حسابها حال النبي صلى الله عليه وسلم (أي) وحال الأمة (صحراء مقفرة، بدوية، دون حضارة)، وما هذا إلا عمل تداولي راعى ظروف الاستعمال وعمد إلى فهم اللغة على أنها تكون بدراستها أثناء الاستعمال:



تكمل المفسرة عملها بوضعنا أكثر في جو الآية، أملا في الوصول إلى المعنى الصحيح، بتبيان حال المتلقي (النبي صلى الله عليه وسلم) فهو ليس بالأمي فقط بل هو الحائر في أمره وأمر قومه، يراهم على سفه وظلال، وينكر عبادتهم لأرباب صنعوها بأيديهم من خشب وحجر وطين ثم نسوا أنهم صنعوها وكدسوها في ساحة البيت العتيق، وعكفوا عليها عابدين.

فكان الأمر في كلمة الوحي ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)) "للأمي المختلي في حراء، توجيهاً وهداية إلى الحق الذي طال التماسه إياه، وإيداناً بانتهاه حيرته التي طالما أجمدته في تأملاته، وانبثاقاً لنور فجر جديد ينسخ ظلمات ليل أدلهم وطال"²⁹

ولكي لا تتعثر الأذهان في الفعل: اقرأ، تورّد بنت الشاطئ ما قاله الإمام الطبري في أن العربية كانت تستعملها في التلاوة من نص مكتوب أو غير مكتوب فهنا تورّد المفسرة: دلالة الفعل الكلامي الخاص من أنه أمر من الله تعالى إلى نبيه.

ثم تنتهي إلى دلالة عامة لهذا الفعل فتراه أمرا: من الله إلى سائر البشر، فكان "تخصيص خلق الإنسان بالذكر دون سائر المخلوقات، لأن الإنسان هو المختص بالقراءة والعلم المنفرد بتبعية التكليف، المخاطب بكل ما سوف ينزل به الوحي من كلمات الله"³⁰.

وتعميم الأفعال الكلامية الطليعية الموجهة إلى رسول الله، يغلب في آيات القرآن الكريم لأن المخاطب الخاص هو المصطفى صلوات الله عليه، والمخاطب العام سائر البشر، كما هو الحال في هذه الآيات من سورة العلق.

ب/ النهي:

أما عن النهي فنجد في مواقع عدة ومن ذلك:

* قال تعالى: ((فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)) الضحى (9-10)، وقد جاء النهي هنا بالحرف (لا) -الحرف الوحيد له- وهو كما يقول السكاكي (ت 626 هـ): "للنهي حرف واحد وهو (لا) الجازم في قولك: لا تفعل والنهي محذو به حذو الأمر في أصل الاستعمال"³¹.

وقد جاء النهي هنا في (لا تقهر/ لا تنهر)، وذهب معظم المفسرين³² إلى أن قهر اليتيم هنا منعه ماله وحقه لكن بنت الشاطئ تبتعد عن كل هذا، وتحاول تحديد دلالة الفعل الكلامي بمراعاة خصوصية الكلمة في هذا السياق بذاته ففرق كبير بين أن تقول أما اليتيم فلا تأخذ ماله، لا تأخذ حقه، وبين لا تقهر، فترى أن كلمة (تقهر) تحمل إيجاف نفسيا أعمق وأدق من هذه التفسيرات المحدودة: "فلا الظلم ولا التسلط بما يؤدي ولا منع الحق ببالغ في التأثير ما يبلغه قوله تعالى: ((فَلَا تَقْهَرْ))، إذ يجوز أن يقع القهر مع انصاف اليتيم وإعطائه ماله، وعدم التسلط عليه بالأذى، لأن حساسية اليتيم، بحيث تتأثر بالكلمة العابرة والفتنة الجارحة عن غير قصد، والنبرة المؤلمة بلا تنبه، وإن لم يصحبها تسلط بالأذى أو غلبة على ماله وحقه"³³.

ومن خلال مراعاتها لخصوصية اللفظ، تخلص إلى أن الفعل الكلامي هنا نهي عن جرح اليتيم بنبرة أو لفته قصد أم لم يقصد، وليس نهى عن أخذ ماله وحقه.

ج/ التمني:

قد يتساءل القارئ لم وضع التمني في باب الطلبات بينما وضع الترجي في باب الغير الطلبي، فنشير إلى أن التمني طلب شيء صعب أو مستحيل الحدوث لكن يبقى طلباً بينما الترجي تعبير عن رغبة في حدوث شيء دون طلبه، في باب التمني يبنه السكاكي أن "الكلمة الموضوعية للتمني هي: ليت وحدها، وأما (الواو) و(هل) في إفادتها معنى التمني"³⁴ وبهذا يجعل أصل التمني في كلمة ليت، أما غيرها فهي حروف تتضمن معناها، من ذلك قوله تعالى: ((فَلَا تَطْعُ الْمُكَدِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)) القلم (8-9).

وتشير بنت الشاطئ كذلك إلى الحرف المتضمن معنى التمني فتقول أن "سر التعبير ب(لو) التي تعطي حس التمني البعيد من المشاركين أن يلين لهم المصطفى عليه الصلاة والسلام"³⁵

فلو هنا متضمنة معنى "ليت" فيها طلب من الكفار بأن يدهن قلب الرسول أي يكون فيه لين وتساهل ومدارة وتحايل في الدين، فهم سيدهنون لطمعهم إدهانك.

وبعد كل هذه الأمثلة من الطلبات (أمر، نهى، تمنى...) نجد أن غرضها هو التأثير في المستمع يفعل شيء، أو لتنفيذ طلب المرجو.

3) إخباريات:

النوع الثالث من الأفعال الكلامية الإخباريات أو كما يسميها جون سيرل (John Searle) النقطة التمريرية الإثباتية.

أطلق عليها د. محمود نخلة تسمية الإخباريات لاقتصرها على الأفعال التي تصف وقائع وأحداث في العالم الخارجي، ويدخل فيها ما تنقله الصحف ونشرات الأخبار إلينا مما يدور في العالم من أحداث وشؤون عسكرية وسياسية وثقافية واجتماعية ودينية واقتصادية.³⁶

فهي إذن كل إخبار عن واقعة خارجية مهما اختلف نوعها، أما في تسمية سيرل لها بالإنبائية فهو بالنظر إلى نفسية قائلها فهو يحاول إثبات صحة خبره للمتلقي، لذا يقول سيرل: "نقطة الفعل الكلامي الإثباتي، هو التعهد للمستمع بحقيقة الخبر"³⁷.
 لكن هل خبره صحيح، رغم محاولته الإنبائية؟ بطبيعة الحال هذا غير واقع، لذا يحدد سيرل أن للإنبائيات (الإخباريات) اتجاه ملاءمة من الكلمة إلى العالم، لكن يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة.

بينما يعبر عنها د. نخلة بالأمانة وتحقيق شرط الإخلاص الذي إذا تحقق يكون الفعل ناجحاً أو تاماً وإذا غاب يكون الفعل معيباً.

وإذا أردنا تقصي الإخباريات في القرآن الكريم فسنعدها كثيرة، فالقرآن كتاب كريم أخبر بأحداث وقعت وبأحداث تقع وبأحداث ستقع مستقبلاً بما في ذلك الآخرة. وفي الأخبار الصادرة من الله تعالى: نقول عنها هي أفعال ناجحة وتامة لأنها تضمنت شرط الأمانة، كيف لا وهي الصادرة من الحي القيوم.

أما في السور المختارة للتفسير البياني فيمكن أن نقسم الأخبار بأن فيها إلى أربعة

أقسام:

① إخباريات حول يوم القيامة.

② إخباريات بقصص السابقين (صالحين / طغاة).

③ إخباريات بحال الإنسان.

④ إخباريات حول خلق السموات والأرض.

وسنفضل فيها أكثر فيما يأتي اعتماداً على هذا الترتيب التصاعدي، فقد كانت أغلبية الأخبار الواردة حول يوم القيامة تلتها سرد قصص السلف فالإخبار عن حال الإنسان وخلق الأرض.

أ/ إخباريات يوم القيامة:

* قال تعالى: ((إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ))
 الزلزلة (1-6).

تبدأ بنت الشاطئ تفسيرها لهذه السورة بأنها وصف ليوم الآخرة³⁸ وبهذا تقرر مباشرة نوع الفعل الكلامي لأن الإخباريات كما سبق القول أفعال كلامية تصف وقائعا وأحداثا في العالم الخارجي، وهنا كانت الوقائع مستقبلية ليوم الآخرة. ثم تنتقل إلى ملحظ آخر هو قصر آيات السورة المخصصة لوصف اليوم الآخر وتعلل أن هذا القصر ملحوظ فيه القوة والجزم، فالموقف موقف حاسم وخطير لأنه يصف يوم الآخرة، والسياق لا يحتمل الإطالة والتأني، ولهذا أيضا كان بناء الفعل للمجهول؛ تركيزا واهتمام بالحدث ذاته وإيحاء بأن الأرض تنزل عن طواعية واستجابة لتسخير تلقائي...، وليس كما توهم بعض المفسرين لشغلهم بالصنعة الإعرابية من الظاهرة الأسلوبية (حذف الفاعل للعلم به)، كما أن تقرير الفعل ماضيا رغم أن الأحداث مستقبلية، تقرير لأنه حادث فعلا وقد صدر بإيحاء فصرفته إلى المستقبل دون أن يفقد التعبير الذي يوحي به استعمال الماضي.

ثم تنبهنا المفسرة إلى خصوصية اللفظ في قوله: "أخرجت أثقالها"، فهو اندفاع للتخلص من الثقل الباهظ، فالمثقل يتلهف على التخلص من حمله وكذلك الأرض هنا كانت مدفوعة برغبة للتخفف من هذا الحمل الذي أثقلها، بمجرد أن حان الأوان. وكذلك الأمر في لفظ أثقاتنا من قوله ((يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ التُّائِسُ أَثْقَاتًا))، فالثقات هو التفرقة وهذا يوحي بالحيرة والخوف والرهبة، إذ مع الجماعة يكون نوع من الأئس والألف، لا يتاح مثله مع التشتت والتفرق، لا سيما في موقف الهول الأكبر.

ب- إخباريات قصص السابقين:

يمتلئ القرآن بقصص السلف صالحين كانوا (رسل، أنبياء، خلق صالح)، أو طالحين (طغاة، جبابرة).

أما القصص الواردة في التفسير البياني فكانت كالتالي:

* قصة سيدنا موسى وفرعون:

قال جل شأنه: ((هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَآرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)) (النازعات (15- 26)).

تشير³⁹المفسرة إلى أن هذه الآيات لفت إلى مصير طاغية علا وتكبر، وهو "فرعون" ولم يعن القرآن هنا بتفصيلات القصة من تحديد تاريخ الحادثة، وذكر نوع الآية الكبرى، ولا نوع النكال، لأن جوهر الإخبار بهذه القصة هو أخذ العبرة دون التعلق بالتفصيلات.

كما أن الآيات الكريمة تعرض مراحل الانتقال في خطوات متتابعة (تسلسل قصصي)، تسلم كل منها إلى أخرى أفدح وأشد نكرا، فبعد أن أراه موسى الآية الكبرى فبدأ أولا بالتكذيب ثم العصيان ثم التولي والإدبار سعيا لتأكيد سلطانه وحمائته من خطر داهم يهدده.

ولا تفوت بنت الشاطئ هذه القصة دون أن تدخلنا في جوها باستحضار المشهد من شخصيات وسياق...، لتفسر الإيجاز البليغ في قول فرعون ((فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)) فالموقف بالنسبة لفرعون موقف خطر وقلق، لو شاعت مقالة موسى في الناس وأبطلت ما يدعيه لنفسه من ربوبية، فالقرآن صور لنا وقع الآية على السحرة وفرعون، فأما هم فسجدوا خاشعين أمام المعجزة وقالوا: "آمنا برب هارون وموسى"، وأما فرعون فثبت على طغيانه وأنكر تسليم السحرة وتوعد وأنذر.

وكل هذا الموقف ينبغي أن يكون موقف خطابة وإطالة وإنما هي كلمات ثلاثة لم تزد (أنا/ ربكم/ الأعلى)، وهذا ما يلائم حالته النفسية.

ج- إخباريات بحال الإنسان:

تصف هذه الأفعال واقع النفس البشرية بكل دقة فتنتقل إلينا ما يدور فيها نقلا تاما بكل ما فيها من حسن أو عيب، لأن ناقل هذه الأفعال هو الله جل شأنه، هو خالق هذه النفس والأعلم بها، وهذا الصنف من هذه الأفعال نجده في التفسير البياني عبر سور عدة أهمها:

1- قال تعالى: ((لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ جِلُّ هَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)) البلد (1-4).

يجبرنا الله في هذه الآية الأخيرة عن خلق الإنسان وحاله في الدنيا فقال أنه مخلوق في كبد، وتذكر بنت الشاطئ معظم الاختلافات في تفسير هذه الآية،

⁴⁰ فالزمنخشري رأى أن الكبد هنا: مرضى القلب من بني آدم، وابن عباس يرى الكبد: حمل الإنسان وولادته ورضاعته وفضامه ونبت أسنانه وحياته ومعاشه ومماته، وكل ذلك سنده... لكن المفسرة لا توافق كل ما ورد، وتستبعده وترجح أن الله سبحانه وتعالى أراد إخبارنا في هذه الآية بما هي للإنسان بفطرته من احتمال المسؤولية ومشقة الاختيار بين الخير والشر. وترتبط هذا الخبر بالقسم الوارد قبله، فالله أقسم بحال أهل مكة وما اختاروا لأنفسهم من استحلل أذى الرسول وهو مقيم بالبلد الحرام، فالإنسان مخلوق بفطرته على هذه المكابدة، هيأت له وسائل الهدى والتمييز ويبقى الاختيار له.

د- إخباريات حول خلق السماوات والأرض:

في باب الإخباريات بالغيبات الماضية وردت آيات عدة تتحدث عن ذلك فمعلوم أن خلق الأرض والسماوات كان سابقاً لخلق الإنسان.

ومن هذه الإخباريات ما ورد في سورة النازعات، من قوله تعالى: ((أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)) (النازعات (27-33)).

تنبه بنت الشاطئ⁴¹ إلى أن القرآن الكريم ساق هذه الإخباريات بأسلوب الاستفهام ليرجعوا إلى أنفسهم -الكفار- فيلتمسوا جواب ما سئلوا عنه ((أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا))؟؟؟، فجاء رد مضح بين صعوبة بناء السماء إلا على الله عز وجل فقد ألف البشر أن يكون المبنى بمنال اليد وأن يشد بما يمسه ويرفعه فلا ينقص، لكن السماء ارتفاع شاهق لا مجال لبلوغه، وفي قيامها على غير عمد أمر عظيم مدهش، كما أنها في استواء دقيق ومحكم أيما إحكام، مجال للضوء والظلام تسفر منها الشمس فإذا الضحى متألّق، وتغيب فإذا الليل مغطش.

ومن آيات قدرته كذلك يتواصل الإخبار حول الأرض المبسوطة، بماها ومرعاها وجبالها المثبتة الراسخة.

وفي كل هذه الإخباريات لفت قوي إلى قدرة الله وتذكير للغافلين والجاهلين والمغرورين نعم الله على مخلوقاته ((مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ))، واستدلال على عظمته؛ خالق السماوات والأرض وما بينهما.

4) الإلزاميات:

الإلزاميات أفعال كلامية، يلتزم فيها المتكلم بفعل شيء للمخاطب في المستقبل،⁴² (كالوعد، الوعيد، المعاهدة، الضمان، النذير، التهديد...).

ويفرق جون سيرل⁴³ بين التهديد وبقية الناذج ويجعله مخالفا لها لأنه ضد مصلحة المستمع ولا يعود عليه بالنفع، واتجاه الملاءمة في هذه الأفعال من العالم إلى الكلمة، وشرط الصدق المعبر عنها هو دائما القصد فهي كالتعليقات لا يمكن القول عنها أنها حقيقية أو زائفة، لكنها يمكن أن يتم تنفيذها أو يحافظ عليها أو يحنث بها.

تنوع الإلزاميات الواردة في التفسير البياني بين: نذير وتهديد ووعد وبشرى.

أ/ النذير:

كان الإنذار أكثر الإلزاميات الواردة في تفسير بنت الشاطي، ويعرف الإنذار بأنه: "إبلاغ المخوف... ويجب أن يكون مقرونا بالوعيد"⁴⁴، من ذلك ما ورد في: * قَالَ تَعَالَى: ((أَلِهَاتُكُمْ تُشْكِرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)) التكاثر (1-8)، يلاحظ القارئ هنا أننا نقلنا كل سورة التكاثر بأكملها لأنها كما تقول بنت الشاطي سورة: "لا يخطئ الحس فيها سيطرة جو الوعيد والإنذار"⁴⁵ وهي بهذا تنظر نظرة تداولية إلى السورة بآياتها الثمانية وتحدد الفعل الكلامي الملائم لها وهو: الإنذار والوعيد من باب الإلزاميات.

فالسورة يسيطر عليها جو إنذاري عرضت فيه مواقف الهول في البعث والحشر وأنذر الغفلة بيقين الحساب والجزاء.

ب- التهديد:

إذا كان الإنذار هو إبلاغ المخوف وقرن ذلك بالوعيد، فإن التهديد "تخويف لا يجب فيه ذلك"⁴⁶، أي أنه تخويف دون أن يقرب ذلك بذكر الوعيد ومن ذلك:

* قال تعالى: ((يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذِلَّةً وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)) القلم (43-47).

إن الحديث المشار إليه في الآية هو ما تلا النبي من كلمات ربه، فلما كذب به هددهم الله بالاستدراج أي الأخذ على إهمال والرخي في العنان، لتكون الحجة والعقاب أفدح وبغته⁴⁷ دون علمهم بذلك ودون ورود تفصيل لهذا المنتظر.

ج- الوعد والبشرى: من تعاريف الوعد أنه: الالتزام للغير بما لا يلزم ابتداء⁴⁸، أما ما يعرف عن البشرى فهي خبر سار ومفرح لا يعلمه الخبر به، وإخبارك به تفاجئه مفاجأة سارة، ويمكن التوفيق بين الوعد والبشرى، إذا اعتبرنا الوعد وعد خير (مناقض للوعيد).

وفي الكتاب الأكبر - كما تحب بنت الشاطئ أن تسميه - كان الوعد والتبشر لعباد الله الصالحين وعدا بالخير المنتظر خصوصا بعد الحساب بل هو أكبر خير "جنة عرضها السموات والأرض". ومن أمثلة ذلك:

* قال تعالى: ((فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِّيئِرُهُ لِلْيُسْرَى)) الليل (5-7).

كان جواب الشرط (نيسره لليسرى) هو الفعل الكلامي من نوع الإلزاميات وتحدهه بنت الشاطئ بقولها: "التيسير لليسرى هو وعد الله للباذلين المعظمين المتقين...، فإن (من أعطى وصدق بالحسنى) تأتيه البشرى مثل ما بشر به المصطفى عليه الصلاة والسلام من تيسير إلهي لليسرى"⁴⁹ وتورد بنت الشاطئ اختلافات عدة في تفسير (اليسرى) من أنها ضد العسر، أو التهيئة للحالة التي هي أيسر على المصدق بالحسنى دنيا وآخرة، أو طريق الخير...، لكنها تتجاوز كل هذا وتنظر إلى فحوى الفعل الكلامي محددة إياه بالوعد الجميل والبشرى السارة.

(5) التعبيريات:

وهي النوع الأخير من أنواع الأفعال الكلامية، ولا اختلاف في تسميتها بين جون سيرل ومحمود نخلة، لأن هذه التسمية تفصح عن خواها، فهي أفعال كلامية يعبر بها المتكلم عن مشاعره في حالات الرضا والغضب والسرور والحزن والنجاح والفشل...، فيدخل فيها أفعال الشكر والاعتذار والتهنئة والمواساة والندم والحسرة والتمني والشوق والحب والكره...

وليس لهذا النوع اتجاه مطابقة، لكن شرط الإخلاص موجود فإذا تحقق أنجز الفعل إنجازاً تاماً.⁵⁰ فأتت إذا "هنأت على نجاح" فأنا أسلم أنني نجحت، مع افتراض سابق بوجود اقتران بين كلامك والواقع.

لكن شرط الصدق يتغير مع تغير نمط التعبير، فقد تكون تهنئاتك صادقة إذا كنت شعرت حقاً بالبهجة عند نجاحي...

وما ورد في التفسير البياني من باب التعبيرات:

الندم والحسرة:

* قال تعالى: ((يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يُؤْمِنُ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَزْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَحْرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ))
النازعات (6-12).

الفعل الكلامي التعبيري هو (الندم): تحدده بنت الشاطيء بعد استقراء لجميع عناصر الموقف الكلامي، ولا تقتصر على البنية السطحية في قولهم (تلك إذا كرة خاسرة) فتقول: "الدلالة النفسية على الحالة النفسية للقائلين في كل من الموقفين بغتهم رجفة القيامة، بما تتبعها من هزة ووجيف وخشوع فهم يقولون في دهشة المأخوذ وحيرة من فوجئ بما لم يكن في حسبانهم قط، أننا المردودون في الحافرة؟ أنذا كنا عظاماً نخرة؟ ولم يكن الموقف بحيث يحتاج إلى إجابتهم عما سأله عنه، وقد قضى الأمر وصار كل هذا الذي كذبوا به واستبعده واقعا مشهودا، فلما عاينوا اليقين (قالوا إذا كرة خاسرة) في حسرة وندم ويأس"⁵¹

وما تقصد بأنها راعت عناصر الموقف الكلامي هو أخذها بالحسبان المتكلم والمتلقي وسياق الموقف، ففجأة تقوم الساعة وقضى الأمر على الكفار ولا سبيل إلى استرجاع ما فات وهذا ما حقق الحسران والحسرة والندم.

هكذا نرى أن ما أطلق عليه سيرل: الأفعال الكلامية، متضمن في العمل التفسيري لبنت الشاطئ، وإنما لم يظهر ذلك بعناوين مباشرة، فما وصل إليه التفسير البياني من تحديد لوظائف التراكيب على اختلافها أو الأغراض التي يريد المتكلم تحقيقها كان محاولة تداولية بمقاييس تراثية.

الهوامش:

¹: عائشة عبد الرحمان كاتبة مصرية و أستاذة جامعية في الأدب العربي والدراسات القرآنية، ولدت بدمياط في 6-ذي الحجة 1331هـ الموافق لـ 6-نوفمبر 1913م، بذت الشاطئ: اسم مستعار وضعته لنفسها في بداية عملها الصحفي في مجلة " النهضة النسائية " وفضلت هذه السترة مراعاة لشدة تحفظ عائلتها ونظرتهم السلبية إلى عمل المرأة وإبداعها في ذلك الوقت.

²: جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، تر: سعيد الغاني، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص 200، 201.

³: ينظر: ك، أوركي، فعل القول من الناتية في اللغة، تر: محمد نظيف، إفريقيا الشرق، المغرب، 2007، ص 15.

⁴: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة، بيروت، ص 21.

⁵: أندري مارتيني، وظيفة الألسن وديناميتها، تر: نادر سراج، المنطقة العربية للترجمة ط1، بيروت، لبنان، 2009، ص 89.

⁶: ينظر: جون أوستين: نظرية الأفعال الكلامية (كيف تنجز الأشياء بالكلام)، تر: عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ص 15، 16.

⁷: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية (مع محاولة تأصيلية في الدرس اللغوي)، بيت الحكمة، ط2، الجزائر، 2012، ص 76.

⁸: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، منشورات عكاظ، الرباط، المغرب، 1989، ص 37.

⁹: نظرية الأفعال الكلامية عند العرب، ص 48.

¹⁰: السكاكي، مفتاح العلوم، تخ: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2000، ص 247.

¹¹: التداولية عند العلماء العرب، ص 80، 81.

¹²: عائشة عبد الرحمان، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، ط1، ج1، ص 190.

¹³: ينظر: نفسه، ج1، ص 86.

¹⁴: محمد محمد يونس، علم التخاطب الإسلامي (دراسة لسانية لمنهج علماء الأصول في فهم النص)، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2006، ص 13.

¹⁵: ينظر: التداولية عند العلماء العرب، ص 99، 100.

¹⁶: ينظر: جون أوستين، نظرية الأفعال الكلامية، ص 116.

¹⁷: ينظر: جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ص 217.

¹⁸: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 98، 105.

¹⁹: ينظر: نفسه، ص 98.

²⁰: التفسير البياني، ج1، ص 25.

²¹: ينظر: نفسه، ج1، ص 26 وما بعدها.

²²: ينظر: التفسير البياني، ج2، ص 98، 99.

- 23: نفسه، ص 105.
- 24: نفسه، ج 1، ص 68.
- 25: نفسه، ج 1، ص 72.
- 26: السكاكي، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد الهنداوي، ص 302.
- 27: ينظر: آفاق جديدة في الفكر اللغوي المعاصر، ص 100، 103.
- 28: ينظر: التفسير البياني، ج 2، ص 15.
- 29: نفسه، ج 2، ص 16.
- 30: نفسه، ج 2، ص 17.
- 31: مفتاح العلوم، ص 418.
- 32: ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، ج 1، ص 51.
- 33: نفسه، ج 1، ص 52.
- 34: نفسه، ص 418.
- 35: نفسه، ج 2، ص 55.
- 36: ينظر: آفاق جديدة في الفكر اللغوي المعاصر، ص 103.
- 37: جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ص 217.
- 38: ينظر: التفسير البياني، ج 1، ص 79-82-85.
- 39: ينظر: نفسه، ج 1، ص 142-148.
- 40: ينظر: نفسه، ج 1، ص 178، 179.
- 41: ينظر: نفسه، ج 1، ص 150، 151.
- 42: ينظر: محمود نخلة، آفاق جديدة في الفكر اللغوي المعاصر، ص 104.
- 43: ينظر: جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ص 218.
- 44: <http://majles.alukah.net/t28429>
- 45: التفسير البياني، ج 1، ص 195.
- 46: <http://majles.alukah.net/t28429>
- 47: ينظر: التفسير البياني، ج 2، ص 70.
- 48: ينظر:
- <http://www.qurankarim.org/books/contentimages/htmlfiles/waad-waeed/waad-waeed-1.html>
- 49: التفسير البياني، ج 2، ص 108.
- 50: ينظر: آفاق جديدة في الفكر اللغوي المعاصر، ص 104.
- 51: تفسير بياني، ج 1، ص 139.